التناسب النصي وأهميته في القرآن الكريم

Textual proportionality and importance in the Holy Quran

La proportionnalitétextuelleet son importance dans le Saint Coran

هبيرة عز الدين[1] *

تاريخ الإرسال:2021/06/13 تاريخ القبول: 2022/02/07 تاريخ النشر: 2023/06/01

ملخص:

تسعى الدراسات النصية إلى تجاوز إطار الجملة إلى النص، وهو ما نجده في الدراسات العربية القديمة ،التي حاولت الكشف عن خبايا النص القرآني وأسراره البلاغية واللغوية، باعتباره نصّا معجزا في نظمه وترتيبه، وهذا ما سعى إليه علماء القرآن حين بحثوا عن الآليات والقواعد المحققة لتماسك هذا النص وترابط أجزائه، من خلال علم المناسبة، الذي جعل من المهتمين بعلوم القرآن والتفسير السبق في إدراك علم النص، فكيف يتم ربط المناسبة في القرآن بتماسك الأجزاء المشكلة للنص، والاهتمام بالوسائل اللغوية التي تصل بين العناصر المكونة للخطاب؟ وكيف ارتبطت الآيات والسور وشكّلت نصا لغويا متماسكا؟.

الكلمات المفتاحية: المناسبة؛ التماسك؛ النص؛ القرآن الكريم

Abstract :

The Ancient Arabic studies are rich in text models that go beyond sentence-to-text. The attempt to explore the characteristics of the Quranic text and its rhetorical and linguistic secrets, given that it is a miraculous text in its texture and composition, and this is what the scholars of the Quran have tried to do in their research on the mechanisms and rules that can explain this cohesion and the interdependence of its parts.

The research on the cohesion of the Quranic text is the specialty of the science of harmony, which made those interested in the science of the Quran and the interpretation of the Quran the first who understood the textual science, so how one relates the harmony in the Koran with the interdependence of the parts of the text? and the interest of the linguistic means which connect the parts of the speech? How Surah and Quranic Verses are related and they make up a coherent linguistic text.

Keywords: Harmony;cohesion; the interdependence of its parts ;text - the HolyQuran.

Résumé :

Les anciennesétudesarabessont riches en modèles de textedépassant le cadre de la phrase au texte. L’essaid'explorer les caractéristiques du textecoranique et ses secrets rhétorique et linguistiques, étantdonnéqu'ilest un textemiraculeuxdanssatexture etsa composition, et c'estceque les savants du coranontessayé faire lors de leursrecherchessur les mécanismes et les règles qui peuventexpliquercettecohésion et l'interdépendance des ses parties.

*المؤلف المراسل

[1] هبيرة عزالدين , جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1 , habira2010@gmail.com, ALGÉRIE

La recherchesur la cohésion du textecoraniqueest la spécialité de la science de l'harmonie, qui a rendu les intéressés de la science du coran et l'interprétation du coran les premiers qui ontcompris la science textuelle, alors comment on lie l'harmoniedans le coran avec la l'interdépendance des parties du texte, et l'intérêt des moyenslinguistiques qui relient les parties du discours ? Comment les sourates et les versetscoraniquessontliés et ilscomposent un textelinguistiquecohérent.

Mots clés :L'harmonie;cohésion;l'interdépendance des ses parties;texte- le Saint Coran.

مقدمة

خالف النص القرآني سائر النصوص السابقة واللاحقة في عرضه لقضاياه ،حين نهج نهجا فريدا في مخالفته لها، ولمناهجها التي اصطلحت عليها في بنائها على مقدمات ومباحث متسلسلة، أو أبواب أو فصول، إلى غير ذلك من تقسيمات في إطار مقاصد محدودة، ونتائج مرسومة، فتراه يذكر طرفا من الشيء، ثم يتركه ثم يعود إلى إتمامه، فنجد الآية متماسكة في كلماتها، متناسبة مع بقية الآيات، وتلتقي السورة بالتي بعدها والتي قبلها، برابط يجعل منها جسما وهيكلا واحدا، فكانت بذلك سور القرآن الكريم معجزة بنظمها، بديعة في اتساقها، متناسبة في آياتها.

فالقرآن الكريم الذي نزل متفرقا بحسب الأحداث في نيف وعشرين عاما، فهو كالكلمة الواحدة، وهذا مسلك علماء القرآن الذين استخدموا مصطلحات تنتمي إلى مجال التماسك النصي مثل: المناسبة بين الآيات، والنظم، وكيفية الاتصال، وكيفية التناسب، حيث يوضحون بهذه المصطلحات تماسك النص القرآني وترابطه(يونس، 2014، صفحة 63).

إن التسليم بانسجام آيات القرآن الكريم وتناغم سوره، من أسباب انطلاق الدراسات حوله، باعتباره نصا معجزا بنظمه، منسجما مع ما يجاوره ،مناسبا له بما يفضي إلى تناسب كل آية من آياته في ذاتها أولا، وفي موقعها الذي حددته علاقتها بالسورة التي تسبقها والتي تعقبها ثانيا، وهذا يعني أننا إزاء بناء متكامل متناسب الوحدات متناغمها؛ الأول فيه ما كان يجب أن يكون ثانيا، والثاني فيه ما كان يجب أن يكون أولا، وهذا الغرض يشمل كافة العناصر، والوحدات التي يضمّها النص، وهو ما يؤول إلى بنية كلية، مشددة أولها إلى آخرها، ومردود أولها على آخرها.

وهذا ما نعني به التماسك النصي، أو الترابط الدلالي على المستوى الداخلي للنص، حيث اتفقت الدراسات اللسانية الحديثة على وحدة تماسك النص بكونه كلا واحدا، كما يشير هذا المصطلح إلى الربط الدلالي المنظم للأفكار داخل الخطاب (إسماعيل، 2012، الصفحات 196-197).

لقد كان ذلك عن طريق استخراج الوسائل والعلاقات والآليات التي تفطن المفسرون واللغويون إلى إسهامها في جعل النص القرآني آيات وسورا كلا واحدا موحدا.

أولا– مفاهيم المناسبة وعلاقتها بالتماسك النصي وأهميتها في القرآن الكريم:

إن الوقوف على مفاهيم علم المناسبة عند اللغويين والبلاغيين، وعلماء القرآن، يفضي إلى تحديد نوع العلاقة التي تجمع علم المناسبة بالتماسك النصي.

1–نشأة علم المناسبة:

استهزأ العرب الأوائل بالنص القرآني منذ نزوله، غير أنهم كانوا مدركين لتناسب آياته ، ومع هذا فقد وسموه بالسحر و بأساطير الأولين، دافِعهم في ذلك هو المكابرة والمعاندة.

وهذا ما وجدناه في موقف الوليد بن المغيرة بعد سماعه القرآن الكريم من الرسول، حيث علم أبو جهل بذلك فأتاهُ فقال: يا عمّ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمد لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوا الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّي، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطِّم فاتحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: (ذرني ومن خلقت وحيدا)[المدثر: 11](الدمشقي، 1421هـ-2000م، صفحة 182).

إن قول الوليد بن المغيرة، فيه دلالة واضحة على تأثير القرآن الكريم على النفس البشرية، فلقد أحسّ بسلاسة القرآن وجماله وتناسقه وترابطه ومنزلته الرفيعة في الكلام.

وأخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ابن مِشْكَم في عامة من يهود سماهم، فقال: أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئت به، حق من عند الله عز وجل فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة، فقال لهم رسول الله:«أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاؤوا به»(الطبري، 1422هـ-2001م، صفحة 76).

وقد نقل الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" عن أبي الحسن الشهرباني (ت672هـ)، أول من أظهر هذا العلم، في قوله: «أول من أظهر ببغداد، ولم نكن سمعناه من غيره، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»(الزركشي، د ت، صفحة 36).

أما أول من وضع مصطلح المناسبة، فيمكن أن يكون الرازي عند تفسيره لآخر سورة المائدة، وكلامه عن مناسبة آخر السور لافتتاحيتها، حيث قال: «فمفتتح السورة من الشريعة، ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوّه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة، فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم»(الدين، 1401هـ-1981م، صفحة 147).

ولقد كان العلماء في هذا العلم على وعي وإدراك بإمكان الاعتراض على هذا العلم، على أساس أن القرآن نزل في أوقات

وأماكن مختلفة، وقد أجاب عن هذا الاعتراض ولي الدين الملوي –أحد مشايخ الزركشي– قائلا: «قد وَهِم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآيه بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم، لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة، لوم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة... والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»(الزركشي، د ت، صفحة 37).

إن القرآن الكريم على الرغم من تفاوت أوقات نزوله شكّل نصّا واحدا، وهو كالكلمة الواحدة كما يعبر عنه، فالزمخشري لم يستعمل كلمة مناسبة، بل استعمل صيغة استفهامية للتعبير عن وعيه بالترابط القرآني وكيفيته، وهذا ما يوجد في تفسيره قوله تعالى:(وبشّر الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) [البقرة: 25]؛ حيث يقول: «فإنّ قلت علام عطف هذا الأمر، ولم يسبق أمر ولا نهي يصحّ عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مُشاكل من أمر أو نهي، يُعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين...»(الزمخشري ج.، 1418هـ-1998م، صفحة 228).

أما صبحي إبراهيم الفقي، فيقول: «والذي نراه أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة واحدة، ثم نزل على رسول الله في نيف وعشرين سنة منجما، وهذا النزول مرة واحدة يوحي بتماسكه، ووجود المناسبة بين الآيات من ناحية وبين السور من ناحية أخرى، ومن ثم فلا مكان للزعم بعدم الربط بين آياته وسوره»(الفقي، 1421هـ-2000م، صفحة 89).

ومن خلال ما سبق يتبين أن نشأة علم المناسبات، وتطبيقاته على القرآن الكريم، أثناء بيان مراده مرتبطة بالزمن الذي بدأ فيه نزول القرآن الكريم، منذ كان الرسول في مكة قبل الهجرة، وقصة الوليد بن المغيرة تدل على ذلك دلالة واضحة، كما يتبين لنا أيضا وعي المفسرين واللغويين بارتباط آي القرآن الكريم، وسوره بعضها ببعض، فتناولوا أنواع المناسبة والعلاقات القائمة بين الآي من جهة، وبين السور من جهة أخرى لإظهار تماسك النص القرآني.

2–مفهوم المناسبة:

أ–المناسبة عند اللغويين:

مرّ معنى المناسبة عند اللغويين بمرحلتين، المرحلة الأولى ممثلة في الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، الذي أورد ثلاثة معاني:

أ–في القرابات منه فلا نسيبي، وهؤلاء أنسبائي ورجل نسيب، والنسبة مصدر الانتساب.

ب–النسيب في الشعر ما كان نسيبا، شعر منسوب وجمعه مناسيب، وهو الشعر في النساء.

جـ-الطريق الواضح كطريق النمل والحيّة، وطريق حمر الوحش إلى المورد وهو طريق واحد(الفراهيدي، 1424هـ-2003م، صفحة 214).

وإلى هذه المعاني ذهب الأزهري (ت370هـ)، الذي يقول: «والنسب يكون بالآباء ويكون إلى البلاد، ويكون بالصناعة»(الأزهري، دت، الصفحات 14-15).

إن النسبة في هذه المرحلة تعني الاتصال والترابط، لأنّ النسب هو مدار الاتصال، والتواصل بين الناس، وكذلك الشعر في شأن النساء سمي نسبيا لاتصاله بهن، والطريق المستقيم الواضح سمي نسيبا لاتصاله وعدم اعوجاجه.

أما المرحلة الثانية، فالمناسبة لها معنيان إثنان:

الأول عند الجوهري (ت393هـ) الذي يقول: «ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة»(الجوهري، 1404هـ-1984م، صفحة 224)، وإلى هذا المعنى مال الزمخشري في تعريفه للمناسبة حيث قال:(ومن المجاز بين السيئين مناسبة وتناسب، ولا نسبة بينهما، وبينهما نسبة قريبة »(الزمخشري أ.، 1419هـ-1998م، صفحة 265).

كما تعني المناسبة المشاكلة عند ابن منظور، الذي يقول: «وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي: مشاكلة»(مكرم، د ت، صفحة 4405).

وهو ما قال به أيضا صاحب القاموس المحيط(الشيرازي، 1301هـ، الصفحات 130-131)، وزاد صاحب تاج العروس تفصيلا قائلا: «من المجاز: المناسبة المشاكلة، يقال: بيّن الشيئين مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكل وكذا قولهم لا نسبة بينهما،وبينهما نسبة قريبة»(الزبيدي، 1399هـ-1979م، صفحة 265).

الثاني ما ذهب غليه ابن فارس: «النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب سمي لاتصاله، وللاتصال به تقول: نسبت أنسب، وهو نسيب فلان... والنسيب: الطريق المستقيم، لاتصال بعضه من بعض»(زكرياء، 1399هـ-1979م، الصفحات 423-424).

فالمناسبة عند ابن فارس تعني الاتصال بوجه من الوجوه، اتصالا أعم من كونه مشاكلة فحسب، وعليه فإنّ المناسبة في اللغة تعنى الاتصال، المقاربة والمماثلة.

ومن تعريفاتاللغويين المعاصرين للمناسبة نجد تعريفا لمحمد أحمد بن يوسف القاسم: «علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل الترتيب بين أجزائه بعضها إثر بعض، وهو سرٌ من أسرار بلاغته لأدائه إلى تحقيق مطابقة معانيه لما يقتضيه الحال»(القاسم، 1399هـ-1979م، صفحة 31)وينظر أيضا تعريف:(القطان، مباحث في علوم القرآن، صفحة 92).

فمعرفة المناسبة بين الآيات يساعد على حسن التفسير، ودقة الفهم وإدراك الاتساق، وتناسب المعاني بين الآيات وترابط أفكارها وتلاؤم ألفاظها.

ويذهب محمد خطابي إلى: «أن المناسبة والتناسب بين الآي بحث عن علاقة آية بآية أخرى متقدمة، وقد بدا لنا من خلال الاستقراء أن المفسر يشرع في البحث عن المناسبة حين تنقطع الصلة بين آية وآية أو آيات سابقة، نعني بانقطاع الصلة أن تكون الآية السابقة كلاما عن القتال والآية اللاحقة لها كلاماً عن إنفاق الأموال مثلا، وكأنا به يفترض سؤال سائل: ما وجه المناسبة بين هذه وتلك؟ أو ما موقع هذه الآية من الكلام السابق»((خطابي، 2006م، الصفحات 189-190).

ونستخلص من قول خطابي أمرين: الأول هو أن المناسبة عنده هي علم يبحث في العلاقة الموجودة بين الآية وآيةٍ أخرى، أو بين آيات متجاورات، حين تنقطع الصلة بينهما.

والأمر الثاني: أنه أعطى اسما آخر للمناسبة وهو **"التناسب"**.

إن علم المناسبات علم يبحث في أسرار ترابط الآيات والسور، ويبحث في العلاقة الموجودة بين كل آية وآية وبين كل سورة وسورة، وبين كل آية وسورة.

ب-المناسبة عند البلاغيين:

يمكن أن نعتبر أن ما تكرر عند العلماء اللغويين من تفسير المناسبة بالمشاكلة، هو نفسه معناها عند البلاغيين، حيث إنها تعني: الترتيب للمعاني، المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، ونقل التهانوي أن المناسبة عند البلاغيين هي جمع أمر، وما يناسب لا بالتضاد(التهانوي، 1996، صفحة 1646).

ثم تلا ذلك تداول للفظ المناسبة من قبل البلاغيين في أبواب مختلفة من علمي المعاني، والبديع، كالمقابلة، ومراعاة النظير، وتشابه الأطراف، وقسم منهم يطلقونها على الفصل والوصل(الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان، 1408هـ-1988م، الصفحات 128-278).

وقد استقر تعريف المناسبة على يد ابن أبي الأصبع المصري في كتابه (البديع)، حيث قال: «المناسبة على ضربين مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ»(المصري ا.، 1957، صفحة 145).

ثم عرّف المعنوية بقوله: «هي أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، ومنه قوله تعالى:(أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل من أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) [السجدة: 26-27]

ثم قال: (فانظر إلى قوله تعالى في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية، لكونهم لم ينظروا القرون الهالكة، وإنما سمعوا بها [أو لم يهد لهم]، كما قال في التي بعدها [أو لم يروا] وقال تعالى بعد الموعظة السميعة [أفلا يسمعون]، وبعد الموعظة المرئية [أفلا يبصرون]، لأنّ الزرع مرئي لا مسموع ليناسب آخر كل كلامه أوّله»(المصري ا.، 1957، الصفحات 145-148).

أما القسم الثاني عند ابن أبي الأصبع فهي: المناسبة اللفظية، وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة(المصري ا.، 1957، صفحة 149).

كما نجد أن البلاغيين قد دار على ألسنتهم لفظ النظم في معنى المناسبة، يقول ابن منظور عن النظم: «وهو التأليف، تقول نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض في نظام واحد كذلك هو في كل شيء حتى يقال ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقه، والانتظام الاتساق»(مكرم، د ت، صفحة 4469).

ويرى الجرجاني أن النسبة هي: «إيقاع التعلّق بين الشيئين»(الجرجاني ع.، 1958م، صفحة 310).

إن ما ذكره البلاغيون موافق لما تقدم في معنى المناسبة.

ومن دلالة المناسبة الاصطلاحية عند علماء البلاغة يقول أحمد يحي:« وأما دلالته الاصطلاحية فإن الناظر في المصادر البلاغية لا يكاد يظفر بتعريف محدد يتفق عليه البلاغيون، فمنهم من اشار إليه شارحا مفهومه اللغوي عن طريق الاستشهاد ،ومنهم من أتى بالأمثلة دون أن يحدد دلالته الاصطلاحية ،إلا أن إشارات مقتضبة تضمنت دلالته الاصطلاحية التي لم تختلف عن دلالته اللغوية كثيرا»(محمد أ.، التناسب في سورة محمد دراسة بلاغية، صفحة 04).

إنّ ما ذهب إليه الدكتور أحمد يحي هو نفسه ما جاء به الجاحظ (ت255هـ) حين قال: «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ،ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف،والخفيف للخفيف،والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال»(الجاحظ، 1424هـ، ج3، صفحة 17).

فالجاحظ يشير هنا إلى مناسبة الألفاظ للأغراض، فيطابق بين المناسبة والقاعدة البلاغية التي تقتضي أن لكل مقام مقالا، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا جزء من المناسبة، وهو مناسبة النص للواقع الذي يلقى فيه.

أما تعريف النويري فقد جاء أكثر نضوجا من تعريف غيره من البلاغيين والأدباء، فقد أوضح في تعريفه معالم مصطلح التناسب، يقول:« هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر»(النويري، 1423هـ، ج7، صفحة 107).

وعلّق أحمد يحي على هذا التعريف بأنه وصف المعاني المتآخية بالمتلائمة وهو ما لا يخرجها عن البلاغة، إلا أنه قد أغفل ذكر الألفاظ ، لأن المعاني هي التي تتطلب الألفاظ، والكثير من أهل البلاغة من يشير إلى مصطلح المعاني ويريد به التركيب، لأن بناء الكلام يحتاج إلى ركنين هما: المفردات والمعاني المراد توصيلها(محمد أ.، صفحة 6).

ويرى الدكتور طارق مصطفى محمد مقارنا بين رؤية البلاغيين والمفسرين كالجرجاني والزمخشري والطاهر بن عاشور، الذين انشغلوا بالنظم داخل الآية القرآنية الواحدة غالبا، أو بين الآيات المتجاورة، وبين علم التناسب الذي يعالج النظام الرابط بين كل أجزاء السورة القرآنية، ويمتد إلى القرآن كاملا(محمد ط.، التناسب في سورة البقرة، 1428هـ-2007م، صفحة 14).

إنّ القرآن الكريم وحدة واحدة متكاملة ،بل إن آياته مترابطة كالكلمة الواحدة، وهو تعبير غاية في تأكيد الوحدة العضوية للقرآن.

ج-المناسبة عند علماء القرآن:

يعرف الزركشي المناسبة بادئا بالتعريف اللغوي قائلا: «المناسبة في اللغة: المقاربة وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله،

ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسيين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم، لأنّه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها –والله أعلم– إلى معنى ما رابط بينهما: عام، أو خاص، عقلي أو حسّي أو خيالي... أو التلازم الذهني... أو التلازم الخارجي؛ كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر»(الزركشي، د ت، صفحة 35).

لقد بدأ الزركشي بتعريف عام للمناسبة، وأبرز الأصل اللغوي، وبيّن أن العقول تقبلها، ثم عقب ذلك بالحديث عن المناسبة في القرآن، فأوضح أنها لا تخرج عمّا تقدّم، لكنه وضع إطارا وقاعدة للقول بالمناسبة في القرآن الكريم، فإنّه لا بد من أن يكون بين المتناسبين من آي أو سور، أو مقاطع معنى رابط يربط بينهما، وهي ما يأتي من أنواع رابطة.

وقد وافق السيوطي الزركشي، إلا أنّه اشترط شرطا لتحقق المناسبة، وهو ضرورة وجود معنى رابط بين المتناسبين، بمعنى أن مرجع المناسبة في الآيات: «المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات، ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص عقلي، أو حسّي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب والعلّة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه»(السيوطي ج.، دت ، صفحة 1840).

يحدد السيوطي وقبله الزركشي أنواع العلاقات التي تربط بين السّور، والآيات ويجعلها في:

–رابط عام أو خاص، أي الانتقال من الجزء إلى العام أو العكس.

–رابط عقلي أو حسّي أو خيالي.

–التلازم الذهني: السبب والمسبب، العلّة والمعلول، النظيرين، الضدين.

ويلاحظ في تعريف السيوطي زيادة لفظ المشاكلة، والإتيان بمرجع المناسبة وشرطها في آيات القرآن الكريم، كما هي عند الزركشي، وأنه لم يضع أي منهما تعريفا للمناسبة في القرآن الكريم.

لكن السيوطي ألحق بما تقدّم قوله: «وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء، المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى، إما أن يكون ظاهر الارتباط بتعلق الكلام بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى فواضح... وإما أن لا يظهر الارتباط »(السيوطي ج.، دت ، صفحة 1840).

وهنا أرشد السيوطي إلى البحث عن جامع أو عن دعامة تؤذن بالاتصال.

وعرف ابن العربي المناسبة بقوله: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلَة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة؛ ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»(السيوطي ج.، دت ، صفحة 1837)(الزركشي، د ت، صفحة 36).

أما برهان الدين البقاعي، فقد عرف علم المناسبات في مقدمة تفسيره "نظم الدرر"، فقال: «علم المناسبات... علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلّق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب، ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة»(البقاعي، د ت، الصفحات 05-06).

فمعرفة مقصود السورة، لا يتم إلا بمعرفة سياقها، فيتوقف معرفة المناسبات على معرفة السياق، والسياق يكون كالخادم لعلم المناسبات في إبراز علل الترتيب التي يراها المفسر، وأسباب تقديم بعضها على بعض، فمن هذه الجهة يكون السياق خادما لعلم المناسبات، ومن جهة أخرى يكون علم المناسبات خادما للسياق، وذلك من خلال الكشف عن أوجه المناسبة، بما يكون عونا للمفسر في إيضاح كلامه، وهو كالترجمان للسياق القرآني، فكل من العلمين خادم للآخر.

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن علم المناسبات، علم يعنى بالبحث في أسرار ترابط الآيات وأجزائها، وترابط السور ببعضها، انطلاقا من مقاصدها وأغراضها للوصول إلى اتساق معانيها، وانتظام مبانيها.

وإن المناسبة بين الآيات والسور تقوم على أساس أن النص القرآني وحدة مترابطة الأجزاء، ومهمة المحلل الذي يتعامل معه محاولة اكتشاف العلاقات أو المناسبات التي تربط بين الآيات، وكذلك التي تربط بين السورة والأخرى، وإن وحدة النص القرآني بوصفه مترابط الأجزاء؛ هي الغاية التي يبحث عنها علم المناسبة.

3-المناسبة بين الرفض والقبول:

يشتمل القرآن على جوانب إعجازية كثيرة، منها الترابط الحاصل بين الآيات والسور، رغم تباين مراحل نزولها، واختلاف مقاصدها، وتنوع حديثها في ظل السورة الواحدة، هذا التنوّع عمّق الترابط، وأضفى على الآي جمالا سمي بالتناسب أو المناسبة التي انقسم العلماء فيها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القائلون بوجود التناسب بين الآيات والسّور:

المناسبة بين الآيات والسور، وارتباط مبانيها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، والمتدبر لكتاب الله يجد أنه على الرغم من نزوله مفرّقا، إلا أنه اكتمل مترابطا محكما.

ودافع عن المناسبة العديد من علماء القرآن إلى درجة التكلف، وأكدوا إثباتها بين كل آية وآية، وبين كل مقطع ومقطع، وأول كل سورة وخاتمتها، وآخر كل سورة ومطلع التي بعدها، ومن هؤلاء نجد: الرازي، وأبو جعفر بن الزبير، وأبو حيّان الأندلسي، والزركشي، وابن القيم الجوزية، وبرهان الدين البقاعي والسيوطي، ورشيد رضا، حيث يقول ابن القيم: «وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة، أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره، ولهذا قيل خير الكلام المسبوك المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض، والقرآن العظيم آياته كلّها كذلك فاعرفه»(الجوزية، الفوائد إلى علوم القرآن وعلم البيان،

1408هـ-1988م).

كما اهتم به برهان الدين البقاعي، حيث قال: «علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو»(البقاعي، د ت، صفحة 6).

ويقول الطاهر بن عاشور: «وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونُكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل، قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلّع...»(عاشور، 1984م، صفحة 8).

أما عند عبد القاهر الجرجاني ت 471هـ فالمعاني تترتب في النفس اولا وتتبعها الألفاظ مرتبة على حسب ترتيب المعاني، يقول: « وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ،لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها، ولاحقة بها ن وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»(الجرجاني ع.، 2004م، صفحة 54)

ولعل هذا يوضح أن النظم هو الإعجاز الحقيقي للقرآن عند الجرجاني، يقول الدكتور جابر العلواني :«ومع أن الجرجاني لم ينص على مفهوم التناسب والوحدة البنائية في القرآن الكريم ، فإن جهوده في بناء نظرية النظم قد أسست لها ،وشقت الطريق إليها ،من حيث إن الترتيب هو الأساس في النظم ،كما أنه السر في التناسب ،والجرجاني نظريا يقرر أن ترتيب الآيات والسور والأعشار هو على أكمل وجوه الاتساق والنظام والإتقان والالتئام والإحكام، لكنه في التقعيد والتطبيق ركّز على الترتيب في الجملة والآية، ولم يتجاوز إلى حد السورة أو التناسب بين السور ، أو الوحدة في القرآن كله»(العلواني، صفحة 3).

أما الزمخشري (ت 538هـ) فقد طبّق في كشافه نظرية الجرجاني في النظم، إذ يقول: « الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ونزّله بحسب المصالح منجّما، وجعله بالتحميد مفتتحا، وبالاستعاذة مختتما»(الزمخشري،1418هـ،1998م،ج1، ص6).

يرى الدكتور طارق مصطفى في هذا القول النقاط الآتية:

_ تصريح الزمخشري بنظم الكلم القرآني ، وأن القرآن الكريم وحدة واحدة.

_ يفهم من كلام الزمخشري أن القرآن الكريم حين أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا كان مؤلفا منظما(محمد ط.، 1428هـ-2007م، صفحة 18).

والناظر في الكشاف يجد الزمخشري يؤكد وحدة النص القرآني وتماسكه، فيصف نظم القرآن الرصين بالبناء المحكم المرصف، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الزمخشري أفضل من قرأ فكر عبد القاهر البلاغي.

لقد حاول هؤلاء العلماء إثبات وجود المناسبة بين الآيات والسور، وأنها آلية لتحقيق التماسك النصي في الكلام على عمومه، بما في ذلك النص القرآني، أما عن الأدلة التي اعتمدها هؤلاء فمنها:

-أن ترتيب آي القرآن وسوره توقيف من الرسول، وهذا دليل على أنه قائم على تناسب الآي والسور، والذي به يثبت أحد جوانب الإعجاز البياني في القرآن الكريم، والمتمثل في النظم الذي يبرز إحكام القرآن.

-أن هذا العلم يعين على فهم الآي القرآنية، ويعد أحد المرجحات عند الاختلاف في فهمها، لذلك يتطلب في فهم كتاب الله معرفة ارتباط أوله بآخره والعكس.

القسم الثاني: المعتدلون في الرفض والقبول:

سلك هؤلاء منهجا وسطا بين المؤيدين والمعارضين، ومنهم العز بن عبد السلام، الذي ركّز على التناسب اللفظي، أكثر من تركيزه على المعنوي، وكان مفهوم التناسب عنده بين الجزء والجزء، يعني اتحادهما أو تماثلهما في قضية واحدة مع التماسها بين المعاني المتجاورة خاصة، يقول العز بن عبد السلام: «واعلم أنّ من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعا متبّرا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متّحد، فيرتبط أوله بآخره، فإنّ وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلاميين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلّف، لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل على الرسول، في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض، إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضه ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب(السلمي، 1408هـ-1987م، صفحة 221)».

ويظهر مما تقدم من كلام العز أنه مقر بالربط، آخذ بالتناسب، لكنه اشترط للقول بالمناسبة: اتحاد الأمر وارتباط أوله بآخره، وقد بيّن ما لا يمكن ربطه في نظره وأن من يقوم بربطه متكلف فيه.

ومن المعتدلين أيضا، نجد الطاهر بن عاشور، وصبحي الصالح؛ هذا الأخير الذي يقول إنّ: «معيار الطبع أو التكلف فيما لمح من ضروب التناسب، بين الآي والسور، يرتد في نظرنا إلى درجة التماثل أو التشابه بين الموضوعات، فإنّ وقع في أمور متحدة مرتبطة أوائلها بأواخرها فهذا تناسب معقول مقبول، وإن وقع على أسباب مختلفة وأمور متنافرة فما هذا من التناسب في شيء»(الصالح، 1977، صفحة 152).

القسم الثالث: المعارضون لوجود التناسب بين الآيات والسور:

أعرض هؤلاء عن المناسبة لأنها أمر احتمالي؛ إذ لو كانت المناسبة ظاهرة، ما وسعهم انكسارها، وأسباب إعراضهم راجع إلى اختلاف فترات نزول القرآن، واختلاف أسبابه، وتنوع الحديث بين الآي في السورة الواحدة، الذي يستحيل معه وجود صلة ارتباط بين الآي بحسب وجهة نظرهم.

ومن المعارضين نجد الشوكاني، الذي استدل بقوله تعالى: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون) [البقرة: 40]، فقال: «أعلم أن كثيرا من المفسّرين جاؤوا بعلم متكلّف، وخاضوا في بحر لم يكلّفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية، المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلا عن كلام الربّ سبحانه»(الشوكاني م.، 1428هـ-2007م، صفحة 50).

وبالنظر إلى أقوال هؤلاء وأدلتهم، فإنه لا يمكن الجزم بانعدام المناسبة في القرآن الكريم، بين آيه وسوره،حتى وإن نزل منجما في أزمنة متفرقة، ورتب على خلاف نزوله ؛إذ إن نزوله على تلك الهيئة قد شكل نصا متكاملا،يسوده الانسجام وقوة الارتباط، ومتانة التماسك.

وللمناسبة فوائد جمة، إذ تساعد في ترجيح رأي على آخر، إذا تساويا، وكان أحدهما أليق بارتباط أجزاء الآية، أو الآيات، فإن العقل يتوجه بداهة لترجيح ما هو الأولى بنظم الكلام، وأن ما ذمّه الشوكاني من التكلف في هذا العلم لا شك أنه ذم في محله، إذ التكلّف غير مقبول عموما(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 293).

أما قوله بأن فن المناسبة كلام بمحض الرأي المنهي عنه، ففيه مبالغة، لأنّ الرأي المنهي عنه هو غير الملتزم بضوابط التفسير(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 293).

ممّا تقدّم نرى إجماع الأقسام الثلاثة على وجود هذا العلم، على الرغم من اختلافهم في درجة الإقبال عليه، نظرا لقوة أدلة المثبتين، وضعف أدلة النافين، وهو ما يثبت ترتيب آي كتاب الله وسوره على الرغم من أن وحدة الموضوع أو السورة، قد لا تتضح بالنظرة الجزئية، أو النظرة السطحية للآي، فضلا عن ذلك مكانة هذا العلم الرفيعة، كونه يفصل بين الآراء المتساوية في القوة ويعالج مشكلات التفسير، ويكشف النظم القرآني البديع.

إنّ القول بوجود التناسب بين الآيات والسور، هو الرأي الأرجح، لأنّ الصحابة —رضي الله عنهم- قد أشار بعضهم عند تفسيرهم للقرآن الكريم، مثل عبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله —رضي الله عنهما- كما أن كثيرا من المفسرين قد اعتنوا بهذا العلم في تفاسيرهم، لأنه يبرز وجها مهما من وجوه إعجاز القرآن(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 294).

كما أن الإمام الشوكاني الذي عارض وجود المناسبة، قد أشار في تفسيره إلى المناسبة، قائلا عند تفسيره لقوله تعالى: (وبشر الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) [البقرة: 25]: «لما ذكر تعالى جزاء الكافرين، عقّبه بجزاء المؤمنين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعته وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه»(الشوكاني م.، 1428هـ-2007م، صفحة 38).

وفي هذا دلالة واضحة على أن التناسب له ارتباط وثيق بالتفسير.

وفي موضع آخر يثني الشوكاني على البقاعي، وعلى كتابه "نظم الدرر"، حيث يقول: «ومن أمعن النظر في كتاب المترجم

له في التفسير، الذي جعله في المناسبات بين الآي والسور، علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علمي المعقول والمنقول، وكثيرا ما يشكل عليّ شيء في الكتاب العزيز، فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها، فلا أجد ما يشفي، وأرجع إلى هذا الكتاب –نظم الدرر– فأجد فيه ما يفيد في الغالب»(الشوكاني م.، 1418هـ-1998م، صفحة 19).

أما ملخص ما جاء في الرد على الإمام الشوكاني :

لا زال دارسو الأدب يعنون بإبراز التناسب بين أبيات القصيدة وارتباط أغراضها ببعضها، مما يصون كلام الشاعر أو الكاتب عن التفكك وعدم الانسجام، مع فارق التشبيه بين النصين، فالنص الأدبي يعكس لنا تصورا كليا لقضية ما ، وأما النص القرآني فإن السورة الواحدة فيها مليئة بكل حركة تفصيلية لشؤون الحياة جميعها.

وإن العز بن عبد السلام يقرّ بالمناسبات، ويمنع المبالغة فيها، أما الشوكاني فهو يرفضها إطلاقا، لكن القولين السابقين يجعلانه يقع في تناقض كما رأينا.

4–أنواع المناسبة:

النص القرآني وحدة لغوية متكاملة، من حيث المبنى والمعنى؛ إذ يتفق أوله مع آخره، وأخره مع أوّله، وتسهم كل جملة من وحداته في تكوين دلالة لا تسمح لإقصاء كل كلمة أو جملة أو فقرة عن موضعها، ومن هنا يقوم التماسك النصي، بإيجاد علاقة بين أجزاء النص أو جمل النص، أو فقراته؛ لفظية أو معنوية، وكلاهما معا يؤدّي دورا تفسيريا.

وللمناسبة في القرآن الكريم أنواع عديدة، فمنها ما يتعلق بالدلالة المحضة الحاصلة من تأليف الكلام على مستوى السور والآيات وهي المعنوية، ومنها ما يتعلق بالألفاظ مفردة أو مركبة، وهي المناسبة اللفظية بين أجزاء الكلام، كالبعد عن التعقيد اللفظي، وتنافر الكلمات، ونظرا للاهتمام والاعتناء بالمناسبة المعنوية، فقد اتسع النظر في ترابط القرآن حتى أصبح الحديث في الأنواع يشمل قسمين رئيسيين هما:

–القسم الأول: المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة.

–القسم الثاني: المناسبة بين السور.

أي أصبح الاهتمام منصبا في هذا المجال أكثر على المناسبة المعنوية التي يقول عنها ابن أبي الأصبع المصري: «وفي الناس من سمّى المناسبة المعنوية ملاءمة، إلا قدامة فإنه جعل الملاءمة ائتلاف ألفاظ الكلام بالمعنى الذي المتكلّم آخذ فيه، وقصده بذلك أن يقال في لفظة من ألفاظ المعنى: لو كان موضع هذه غيرها لكان الكلام مؤتلفا بمعانيه، وألفاظه ملائمة له وما ذكرته من المناسبة فيه زيادة على هذا المقدار، إذ غيرها من الألفاظ يوفى بما قاله الناس في تفسير الائتلاف، ويزيد عليه زيادة معلومة عند أرباب النقد»(المصري ا.، 1383هـ-1963، الصفحات 366-367).

أي أن ابن أبي الأصبع، يضيف مصطلحا آخر إلى المعاني المتعددة للمناسبة، وهو مصطلح الملاءمة.

وعليه، فإنّ للمناسبة بعلاقاتها تنقسم إلى: مناسبة على مستوى السورة نفسها، حيث يرتبط أجزاؤها النصية، ومناسبة على

مستوى السور، حيث ترتبط وتتماسك المقاطع والمطالع، وكذا المناسبة بين وحداتها النصية.

القسم الأول–المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة:

قسّم الزركشي الترابط والتماسك بين الآيات إلى قسمين: الأول وتكون فيه الآية معطوفة على ما قبلها، ويكون وجه العطف بين الآيتين، قائما على أساس من علاقة جامعة أو جهة جامعة، وقد تكون معطوفة على ما قبلها، ويشكل وجه الارتباط، فيحتاج إلى شرح، والثاني ألا تكون الآية معطوفة:«فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط... تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني وله أسباب»(الزركشي، د ت، صفحة 46).

ذكر الزمخشري هذه الأسباب وهي:

أ–التنظير: ومنه قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) [الأنفال: 5] عقب قوله تعالى: (أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) [الأنفال: 4].

يعلق الزركشي على هذا قائلا: «فإنّ الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون...»(الزركشي، د ت، صفحة 47).

فالتنظير في رأي الزركشي، هو علاقة المناسبة التي جمعت بين هاتين الآيتين، وذلك تناظر الحدثين، وتماثل رد فعل المسلمين، وهو كراهتهم لما فعله الرسول بشأن الغنائم، كما كرهوا الخروج معه من بيته لطلب العير.

ب–المضادة: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: (إن الذين كفروا سواء عليهم) [البقرة: 6]، قال الزركشي معلّقا على ذلك: «فإنّ أوّل السورة كان حديثا عن القرآن الكريم، وأن من شأنه كيت وكيت... فرجع الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقّب بما هو حديث عن الكفار، فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه»(الزركشي، د ت، صفحة 49).

إن انتقال الخطاب من الحديث عن المؤمنين إلى الحديث عن الكفار، قد جعل بين الآيتين مناسبة هي التضاد، أي بين الآية [06]، وبين الآية التي سبقتها(خطابي، 2006م، صفحة 194).

جـ–الاستطراد: كقوله تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) [الأعراف: 26]، يسترشد الزركشي بتفسير الزمخشري لهذه الآية، وأنها: «واردة على سبيل الاستطراد، عقب ذكر بدوّ السوءات وخصيف الورق عليها، إظهارا للمنّة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى»(الزركشي، د ت، صفحة 49)(الزمخشري ج.، 1418هـ-1998م، صفحة 435).

د–الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع: ومن ذلك قوله تعالى: (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) [ص: 49]، قال الزركشي: «لما انتهى من ذكر الأنبياء... أراد أن يذكر نوعا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال: (هذا ذكر)، فأكّد تلك الإخبارات باسم الإشارة... وقال (وإن للمتقين لحسن مآب) »(الزمخشري ج.، 1418هـ-1998م، صفحة 50).

وكما هو واضح تمّ الربط باسم الإشارة، وهي علاقة المرجعية بين المعنى السابقة واللاحق، وأعطى دلالة على أنه سوف يتم الانتقال من الحديث إلى حديث آخر.

ولهذا القسم خمس صور هي(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 304):

1-تناسب كلمات الآية الواحدة -2- تناسب ترتيب الآيات -3-تناسب مطلع السورة مع مقصدها -4- تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها -5- تناسب مطلع السورة مع خاتمتها.

-القسم الثاني-المناسبة بين السور:

حاول الزركشي إيجاد علاقات أو روابط عامة بين السور من حيث المضمون أولا، وقد وجّه اهتمامه أولا إلى سورة الفاتحة باعتبارها مقدمة القرآن أو المدخل إليه، وأنها (أم الكتاب)، ولذا فمن الضروري أن تحتوي على أقسام القرآن ولو على سبيل الإشارة(يونس، 2014، صفحة 66).

وقد تحدث السيوطي في كتابه: «تناسق الدرر في تناسب السور»، عن علاقات التناسب أو عن العلاقات النصية، التي يبنى على أساسها القول بالترابط بين سورة وأخرى، وقد استقرت هذه العلاقات في:

-علاقة تفصيل المجمل، وعلاقة التلازم والاتحاد، وعلاقة تشابه الأطراف، وعلاقة المقابلة، وعلاقة المقارنة، وعلاقة الملابسة، وعلاقة التحقيق، وعلاقة بيان العلّة وعلاقة الإتمام أو العطف، وعلاقة الإطار الزمني(السيوطي، 1406هـ-1986م، صفحة 67).

ولهذا القسم ثلاث صور(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 304):

1-تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها. 2-تناسب خاتمة السورة مع فاتحة ما بعدها.

3-تناسب مقاصد السورة مع السورة التي قبلها.

ويمكن أن نضيف نوعا آخر للمناسبة، يتعلق بالقصة القرآنية، وهو أربعة أقسام:

القسم الأول- التناسب بين آيات القصة القرآنية الواحدة:

المناسبة في القصة القرآنية، تجعل منها أحداثا متماسكة، ومنسجمة، ومن عوامل التناسب والتماسك بين آيات القصة القرآنية ما يأتي (العبيدي، 1425هـ-2004، صفحة 202):

1-القصّة القرآنية تعبر عن سلسلة من الأحداث القصصية في نمط سردي.

2-موضع القصة القرآنية متماسك مع هدف السورة العام.

ومن ثم تبدو المناسبة بين موضوع القصة ومحتواها واضحة، ويتحقق فيها التماسك النصي من خلال المرجعية القبلية، وكذلك المناسبة بين آيات القصة فكل آية تتعلق بالأخرى.

القسم الثاني– التناسب بين القصص في السورة الواحدة:

ورد في بعض السور أكثر من قصة، والمتأمل في سياق كل قصة، وفي سياق السورة العام، وفي سياق الحال يهتدي إلى معرفة التناسب بين تلك القصص.

والمناسبة قد تكون ظاهرة كما في سورة هود، فيجيء القصص مصدقا للحقائق التي تقررها السورة، من تقرير العبودية لله وتقرير مصدر التشريع ومصدر الرزق، وهو ما أجملته السورة في بدايتها، قال تعالى: (ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) [هود: 2-3]، إذ يتلخص موضوع السورة كلها في الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره(العبيدي، 1425هـ-2004، صفحة 204).

ويتكرر هذا في القصص القرآني، إما بصيغة الأمر أو بصيغة النهي، فقد خاطب نوح عليه السلام، قومه بقوله: (أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) [هود: 26]، وخاطب هود عليه السلام قومه بقوله: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [هود:50]، وخاطب صالح قومه بقوله: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[هود: 61]، وخاطب شعيب قومه بقوله: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[هود: 84]، فوحدة خطاب الرسل من عوامل التناسب بين قصصهم، فالمرسل واحد والرسالة واحدة، والمرسل إليهم طبيعتهم واحدة(العبيدي، 1425هـ-2004، صفحة 204).

ومما يؤكد التناسب بين القصص في سورة هود، هو أنها اتبعت خط سير التاريخ، فبدأت بنوح ثم هود ثم صالح ثم إبراهيم ثم لوط ثم شعيب ثم موسى عليهم السلام(قطب، 1405هـ-1985م، صفحة 1870).

وهذا يعني أن ترتيب الأحداث في السورة متفقا مع ترتيبها في الواقع، أي أن السياق التاريخي له أثر كبير في بيان التناسب والتماسك النصي، «وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام، والتناسق بين القصص والسياق، بكمال النظرة والفكرة، والاتجاه في هذا القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا..»(قطب، 1405هـ-1985م، صفحة 1934).

القسم الثالث– المناسب بين القصة القرآنية وسياقها:

يرد القصص القرآني منسجما مع هدف السورة وموضوعاتها، فكما تنسجم القصة مع غيرها من القصص في السورة، تنسجم القصص مع سياقها في السورة، ومثال ذلك القصص القرآني في سورة الشعراء، التي تضمنت سبع قصص تبدأ بقصة موسى وتنتهي بقصة شعيب، وهذه النظرة الكلية تؤكد مدى التناسب بين القصص(العبيدي، 1425هـ-2004، صفحة 205).

وقد جاءت نهاية السورة مناسبة لجوّ التكذيب والتهديد بالعذاب الذي يسود السورة كلها، إذ :«تنتهي بهذا التهديد المخيف الذي يلخص موضوع السورة، وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب، يتمثل في صور شتى يتمثلها الخيال ويتوقعها، وتزلزل كيان

الظالمين زلزالا شديدا»(قطب، 1405هـ-1985م، صفحة 2623).

القسم الرابع– التناسب بين اسم السورة والقصص الواردة فيها:

اسم السورة هو عنوانها، وله علاقة بمحتواها، و«اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأنّ اسم كل شيء، تظهر المناسبة بينه وبين مسماه –عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه»(البقاعي، د ت، الصفحات 18-19).

ولذلك «ينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق، أو صفة تخصّه أو تكون معه أحكَم أو أكثر أو أسبق لإدارك الرائي للمسمّى، ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز: كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها»(الزركشي، د ت، صفحة 270).

وخلاصة القول: إن القرآن الكريم لشدة تماسكه، عدّ كالكلمة الواحدة، على الرغم من أن لكل سورة من سور القرآن، شخصية متفردة، وملامح متميزة، ومنهج خاص، وأسلوب معين، ويتحقق التماسك المطلوب عن طريق المناسبة، لأنّ للتناسب قدرة على ربط الأجزاء بعضها ببعض، بل وقدرة على ربط نصوص بنصوص.

5–علاقة المناسبة بالتماسك النصي في القرآن الكريم:

لم ينزل النص القرآني دفعة واحدة، ولهذا احتاج في فهمه وتفسيره إلى معرفة مكان النزول وزمانه ومناسبته، والسياق الذي قيلت فيه الآيات، أو ما يعرف بالمناسبة، وعند النظر إلى السور القرآنية، نلاحظ أن فيها آيات متجاورات، ولكل منها مناسبة نزول خاصة بها، ومع ذلك –كما مرّ بنا سابقا– فهي متماسكة، وهذا التماسك راجع إلى وحدة الموضوع الذي تعالجه كل سورة، فالعديد من السور المكية، تتحدث عن قصص مختلفة، مع العلم بأن لكل نبي قصته مع قومه، وأن هذه القصص متماسكة أيضا فيما بينها، ويجمعها إطار عام يوحّدها؛ فهناك ارتباط معنوي بين أجزاء النص القرآني، سواء أكان سورة أو آية، يجعل منها بناء متماسكا ومتناسقا، فالقصة القرآنية تدور في فلك الموضوع الرئيس، الذي تعالجه السورة، بحيث تجعل هذا الموضوع مترابطا ومتماسكا.

وتتناول المناسبة في موضوعاتها العلاقات بين السور والآيات؛ أي تحاول الوصول إلى الوحدة النصية فيما بينها، وقليلة هي التفاسير التي جعلت من الوحدة النصية منطلقا لها، إلاّ أن التي أشرنا إليها سابقا كالسيوطي والبقاعي، والزركشي، حيث أن التفاسير الأخرى تتناول الآيات والسور بالشرح لغويا ونحويا وبلاغيا، دون تحديد الخيط الناظم بينها، أو توضيح الوحدة النصية، التي تجعل من هذه الآيات منسجمة.

وقد حاول بعض المفسرين في القديم والحديث، تحليل النص القرآني بوصفه نصّا متماسكا، وقدموا لنا إشارات نصية متميّزة.

ويعدّ كتاب البقاعي، من أبرز الكتب التي أشارت إلى الربط بين الجمل في المتتالية النصية، سواء على مستوى ربط السورة الواحدة، أو ربط السور المتتالية والمتباعدة، حتى أنه ربط الناس بالفاتحة وما بعدها، وربط أيضا ما بينهما(خرمة، 1425هـ-2004م، صفحة 48).

يقول البقاعي أثناء حديثه عن سورة الناس: «ومقصود هذه السورة معلول لمقصود الفاتحة، الذي هو المراقبة، وهي شاملة لجميع علوم القرآن، التي هي مصادقة الله ومعاداة الشيطان ببراعة الختام، وفذلكة النظام، كما كانت الفاتحة شاملة لذلك؛ لأنها براعة الاستهلال، ورعاية الجلال والجمال، فقد اتصل الآخر بالأول، اتصال العلّة بالمعلول، والدليل بالمدلول، والمثل بالممثول»(البقاعي، د ت، صفحة 423).

لقد سعى البقاعي في تفسيره إلى العمل على تحقيق الوحدة النصية، بين الجمل وربطها بعضها ببعض، يقول: «وهذا العلم_ المناسبات_ يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما نظم جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولا)(البقاعي، د ت، صفحة 11).

أيّ أن البقاعي تكلّم عن العلاقة التي تربط بين الآية والآية، في قوله: (والذي نبغي في كل آية، أن يبحث أول كل شيء عن كونها تكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم»(البقاعي، د ت، صفحة 8).

ويعلن أن الأسلوب هو الترتيب المخصوص في نظم الآي، فيقول متبنيا ما نقله الأصفهاني من رأي الرازي في سورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة –البقرة– وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه، ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنّه معجم بسبب أسلوبه، أرادوا ذلك»(البقاعي، د ت، صفحة 9).

ولقد أثبت البقاعي في "نظم الدرر"، أنّ الآيات تتعلق ببعضها البعض، والأمر نفسه بالنسبة للسور، رغم بعدها البنيوي، وبالتالي تحقيق للوحدة النصية بينها جميعا –الآيات والسور– وتحقيق للتماسك النصي في القرآن الكريم.

ومن الكتب التي تناولت المناسبة كتاب "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، وكتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، حيث كان هذا الأخير متأثرا بالبقاعي والزركشي، إلاّ أنه يحمد له حسن الترتيب والتصنيف، وقد استفاد الزركشي والسيوطي من الدراسات القرآنية، وكتب التفسير التي تناولت علم المناسبة تناولا تطبيقيا، وقاما بوضع الأسس النظرية لهذا العلم(الخلف، 2006-207، صفحة 124).

وقبل الوصول إلى العلاقات بين الآيات والسّور، يشير السيوطي إلى أنّه يجب معرفة غرض السورة بالاطلاع على أسباب النزول، قبل معرفة أسباب الترتيب، يقول: «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات... وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراق نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراق إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعَلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة سورة»(السيوطي ج.، دت ، صفحة 1846).

وكمثال عن العلاقات التي تربط بين الآيات والسور، يقول: «...وبهذا يظهر أن ما في سورتي الأعراف والشعراء من باب

الاستطراد لا التخلص لعوْده في الأعراف إلى قصة موسى»(السيوطي، 1406هـ-1986م، صفحة 1844).

أيّ أنّ السيوطي أدرك العلاقات المعنوية، والعلاقات الشكلية الأخرى بين الآيات والسور، كما وقف على العلاقة بين فواتح السور وخواتمها، أو ما سمّاه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، يقول: «ومنه مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها، حتى إنّ منها ما يظهر تعلّقها به لفظا كما في: (فجعلهم كعصف مأكول) الفيل: 5]، (لإيلاف قريش) [قريش: 1] »(السيوطي ج.، دت ، صفحة 1852)،وهو نفس الأمر الذي تكلّم عنه البقاعي في مناسبة السور لبعضها البعض وتماسكها، غير أن السيوطي أشار إلى السور المتتالية بحسب ترتيب المصحف الشريف.

إن دراسة السيوطي للتماسك توضيح للجانب الإعجازي في النص القرآني، المتمثل في التماسك بين الآيات والسور، أي وعيه بآليات النص القرآني.

لقد اعتنت المناسبة عند السيوطي بالجانب الإعجازي في القرآن الكريم، كما اعتنت أيضا بالمتلقي من خلال استشراف نفس السّامع؛ حيث إن المتلقي أو قارئ لنص، هو المنتج الثاني له من خلال تأويلاته وتفسيراته المختلفة.

ومن المحدثين الذين اعتنوا بالمناسبة، نجد سيد قطب في تفسيره: "في ظلال القرآن"، فقد أوضح التماسك النصي بين آيات السورة القرآنية،وقسّم آيات السورة أقساما بحسب موضوعاتها، وبين ترابط أجزاء كل موضوع، وترابط الموضوعات فيما بينها داخل السورة نفسها، وبين علاقة كل سورة بالتي قبلها، حيث تترابط السور كلها في نص لغوي واحد من القرآن الكريم، يقول عبد الفتاح الخالدي عن سيد قطب:«سيد قطب سيدُ هذه الساحة وقُطب رحاها، لأنّه قدّم لنا —في الظلال- السور والآيات كلبنات وحلقات متراصة في النص القرآني المتناسق المعجز»(الخالدي، 1998، صفحة 152).

وتحقق المناسبة عند سيد قطب، التماسك بين العناصر الآتية(الخالدي، 1998، صفحة 156):

-التماسك النصي بين السورة والسورة.

-التماسك النصي في السورة الواحدة.

-التماسك بين مقاطع الدرس الواحد كجزئيات تكمل موضوع ذلك الدرس.

-التماسك بين آيات المقطع الواحد، كأفراد تلتقي، وتكمل بعضها في إبراز شخصيته.

-التماسك بين كلمات الآية الواحدة، وجملها، لتكون لبنة متكاملة من لبنات النص القرآني المعجز الفريد.

وكمثال عن ما تقدّم ذكره، يقول سيد قطب في تعريفه سورة الأعراف، مثبتا نظرته المتفردة إلى القرآن وإلى سورة: «إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة... إنها كلّها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية... هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسّها، وهكذا عدت أتعامل معها، بعد طول الصحبة،

وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه، واتجاهاته وملامحه وسماته »(الخالدي، 1998، الصفحات 157-158).

وبهذا يمكن تصنيف منهج سيد قطب، في بيان التماسك النصي في المناسبة المعنوية، لأنّ ما أشار إليه سابقا من العناصر النصية، التي تتحقق من خلال المناسبة، يعدّ ملمحا نصيّا متفرّدا.

وإجمالا فإنّ للمناسبة دور متميز عند علماء القرآن، في حين أن النص القرآني لا يقف عند حدود النظر اللغوي، ويمكن رصد زاويتين للمناسبة النصية:

-الزاوية الأولى: جزئية لا تتجاوز حدود الآية الواحدة.

-الزاوية الثانية: كلية تتجاوز الآية الواحدة إلى غيرها، فهي تبحث في المناسبة بين مجموعة الآيات المتتابعة، ويشمل المناسبة بين السورة والتي تليها، وهذه هي أساسيات التماسك النصي في القرآن الكريم، والذي نسعى لبيانه من خلال دور المناسبة في تحقيق التماسك النصي في قصة موسى عليه السلام، سواء على مستوى السورة الواحدة، أم على مستوى مجموعة من السور.

والقصة القرآنية المتمثلة في قصة عليه السلام تشتمل على وحدات معان متماسكة، من خلال حلقاتها المترابطة، التي لم تعرض في القرآن الكريم، بالحلقة التي تليها حلقة أخرى في ترتيب المصحف الشريف، وإنما كان الارتباط بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع، أي الغرض الذي جاءت من أجله القصة القرآنية، والوحدة الموضوعية في القصة القرآنية تدور حول كشف أو بيان ما فيها من تماسك وارتباط، وذلك بتضافر عناصرها واتحادها، لإبراز الهدف أو المقصد الذي جاءت القصة القرآنية لبيانه أو التأكيد عليه.

إن وظيفة المناسبات هي الكشف عن وجوه الربط بين الآيات والسور، التي لا يظهر لأول مرة وجه ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ولا يتم الربط إلا بعد معرفة المعاني التي احتوتها الآيات السابقة واللاحقة، ولا يتم فهم موضوع المناسبات إلاّ بعد معرفة سياق الآيات والسور القرآنية، وحينئذ يتحدّد موضوعها «أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب»(البقاعي، د ت، صفحة 5).

ومنه تكون المناسبة في غاية الوضوح والبيان، عن طريق ربط جزئيات الآي والسور ترتيبا وترابطا.

6-أهمية المناسبة في القرآن الكريم:

تبحث المناسبة في أسباب الربط بين آيات تبدو في ظاهرها منقطعة الصلة، لا ارتباط بينها، ولكنها من حيث البنية العميقة متماسكة، ذات صلة متينة الأجزاء، وخاصة فيما يتعلّق بالمناسبة المعنوية –كما رأينا سابقا-، فهي من أهم وسائل الربط الدلالية، التي تربط بين آية وآية، وسورة وسورة.

وهذا الترابط الدلالي أقوى من الترابط اللغوي، حيث إن الترابط الدلالي يتحقق بواسطة العلاقات الداخلية في النص، فلا يحتاج إلى عوامل خارجية لتحقق له هذا الربط، ويقول ابن العربي عن فائدة المناسبة في كتابه: "سراج المريدين": «ارتباط

آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلمّا لم نجد له حَمَلَةً، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»(البقاعي، د ت، صفحة 7)(الزركشي، د ت، صفحة 36).

كما أثنى الجرجاني، وبيّن مزاياه وفوائده، عند حديثه عن نظم القرآن، حيث قال: «وهو باب من العلم، إذ أنت فتحته أطلعت منه على فوائد جليلة، ومعان شريفة، ورأيت له أثرا في الدين عظيما، وفائدة جسمية، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخلل، فيما يتعلق بالتأويل، وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك وتدافع عن معزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدي إليه وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه»(الجرجاني ع.، 2004م، صفحة 41).

كما يرى البقاعي أنّ علم المناسبات ليس عبثا، بل له ثمرة وفائدة، إذ يقول: «وثمرته –أي علم المناسبات– الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق، هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن، علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني، لما اقتضاه من الحال»(البقاعي، د ت، الصفحات 5-6).

فمعرفة المناسبة بين الآيات، يساعد على حسن التأويل ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات، وترابط أفكارها، وتلاؤم ألفاظها، قال الزركشي: «واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء... وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة »(الزركشي، د ت، الصفحات 35-36).

وبمعرفة هذا التناسب نتمكن من معرفة كيف تماسك القرآن الكريم، وكيف استقام له هذا التناسق.

أما محمد عبد الله دراز فيقول: «لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية (معجزات) ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات !»(دراز، 1405هـ-1985م، صفحة 211).

ومن ملامح أهمية علم المناسبة أيضا فهم مراد الله تعالى في كتابه وعدم الوقوع في اللبس أو الخطأ أو التأويلات المغالى فيها وهو ما رآه الدكتور صلاح الخالدي(الخالدي، 1998، صفحة 127).

كما تكشف المناسبة أهمية الأمور وقدرها، وقد مثّل لهذا الدكتور طارق مصطفى باقتران طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم بطاعة الله تعالى في كثير من الآيات ، ومغزى مجيء الزكاة بعد الصلاة في عدة مواطن من كتاب الله تعالى ، وأهمية الإحسان بالوالدين إذا جاء بعد التوحيد في أكثر من موطن(محمد ط.، التناسب في سورة البقرة، 1428هـ-2007م، صفحة 58).

ومن جميع ما سبق من أقوال هؤلاء العلماء، تتأكد أهمية هذا العلم وفائدته ومكانته، لأنّه يعين على فهم معاني القرآن الكريم؛ فعندما ترتبط الآيات وتلتحم مع بعضها يؤدّى المعنى بوضوح.

وهناك فوائد أخرى يمكن إجمالها في النقاط الآتية(العزاوي، 1436هـ-2015م، صفحة 299):

-إظهار إعجاز القرآن البياني، فهو يربط الكلام ببعضه البعض، فيصير النظم محكما، مترابط الأجزاء، متناسق المعاني، فكل كلمة تناسب موضعها في القرآن الكريم.

-استنباط معان جديدة يقتضيها السياق.

ومن الفوائد أيضا أن علم المناسبات علم مهم، فهو رافد من روافد الإعجاز القرآني، وله أثر عظيم في تفسير القرآن الكريم، لما في ثماره من التفات إلى الحكمة من ترتيب السور والآيات على الوجه الذي هو عليه، واهتمام باستخدام المعاني والحكم ولطائف الفوائد، التي لا يتوصل إليها إلا بالتماس المناسبة بينها، ومعرفة وجوه الربط بين أنواع المناسبات.

وما يمكن قوله في الأخير، هو أنّ المناسبة تربط الكلام بعضه ببعض من جهة الألفاظ أو المعاني، أو من جهتهما معا، حيث لا نستطيع استبدال أجزاء أخرى من الكلام بأجزائه الموجودة فيه، أو تغيير وضعه الذي جاء عليه، وإن حدث ذلك تنافر الكلام شكلا ومعنى.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي الأصبع المصري. (1383هـ-1963). *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيانع إعجاز القرآن*. لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- ابن أبي الاصبع المصري. (1957). *بديع القرآن*. مصر، القاهرة: دار نهضة .
- ابن القيم الجوزية. (1408هـ-1988م). *الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن القيم الجوزية. (1408هـ-1988م). *الفوائد إلى علوم القرآن وعلم البيان*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم. (د ت). *لسان العرب*. القاهرة، مصر : دار المعارف.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء. (1399هـ-1979م). *مقاييس اللغة*. دار الفكر.
- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري. (1419هـ-1998م). *أساس البلاغة*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. (1424هـ-2003م). *كتاب العين: مرتبا على حروف المعجم* . بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. (دت). *تهذيب اللغة*. مصر، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- أبوز الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. (1421هـ-2000م). *تفسير القرآن العظيم*. القاهرة مصر: مؤسسة قرطبة.
- أحمد عزت يونس. (2014). *العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم*. القاهرة: دار الآفاق العربية.
- أحمد يحي محمد. (بلا تاريخ). *التناسب في سورة محمد: دراسة بلاغية*.
- إسماعيل بن جهاد الجوهري. (1404هـ-1984م). *الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية*. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- الحاحظ. (1424هـ، ج3). *الحيوان*. بيروت: ط2، دار الكتب العلمية.
- الزبيدي. (1399هـ-1979م). *تاج العروس من جواهر القاموس، السيد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، تاج الهروس من جواهر القاموس*. مطبعة حكومة الكويت.
- السيوطي. (1406هـ-1986م). *تناسق الدرر في تناسب السور* . دار الكتب العلمية.
- الطبري. (1422هـ-2001م). *تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن*. الجيزة مصر: دار هجر .
- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. (د ت). *البرهان في علوم القرآن*. القاهرة مصر: مكتبة التراث.
- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. (د ت). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- جار الله أبي القاسم محمو بن عمر الزمخشري. (1418هـ-1998م). *الكشاف عن حقائق غوامش التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل* . الرياض: مكتبة العبيكان.
- جلال الدين السيوطي. (دت). *الإتقان في علوم القرآن*. المملكة العربية السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.
- سيد قطب. (1405هـ-1985م). *في ظلال القرآن* . بيروت، لبنان: دار الشروق .
- شهاب الدين النويري. (1423هـ، ج7). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. ط1، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- صبحي إبراهيم الفقي. (1421هـ-2000م). *علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:دارسة تطبيقية على السور المكية* . القاهرة مصر : دار قباء .
- صبحي الصالح. (1977). *مباحث في علوم القرآن*. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي. (1998). *المنهج الحركي في ظلال القرآن*. الجزائر: دار الشهاب.

- طارق مصطفى محمد. (1428هـ-2007م). *التناسب في سورة البقرة*. رسالة ماجستير، جامعة القدس: القدس.
- طه جابر العلواني. (بلا تاريخ). *الوحدة البنائية للقرآن المجيد*.
- عبد القاهر الجرجاني. (2004م). *دلائل الإعجاز*. القاهرة: مكتبة الخانجي .
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي. (1408هـ-1987م). *الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم* . بيروت، لبنان: دار البشائر الإسلامية.
- عقيد خالد حمودي العزاوي. (1436هـ-2015م). *البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم* . دمشق، سورية: دار العضماء.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني. (1958م). *كتاب التعريفات* . بيروت: مكتبة لبنان.
- عمر أبو خرمة. (1425هـ-2004م). *نحو النص: نقد النظرية...وبناء أخرى*. الأردن: عالم الكتب الحديث.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي. (1301هـ). *القاموس المحيط*. مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- محمد أحمد يوسف القاسم. (1399هـ-1979م). *الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم*. القاهرة، مصر: دار المطبوعات الدولية.
- محمد الرازي فخر الدين. (1401هـ-1981م). *تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب*. بيروت لبنان: دار الفكر .
- محمد الطاهر بن عاشور. (1984م). *تفسير التحرير والتنوير* . تونس: دار التونسية.
- محمد بن علي الشوكاني. (1418هـ-1998م). *البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- محمد بن علي بن محمد الشوكاني. (1428هـ-2007م). *فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير* . بيروت، لبنان: 50.
- محمد خطابي. (2006م). *لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب*. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- محمد عبد الله دراز. (1405هـ-1985م). *النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن*. الدوحة، قطر: دار الثقافة.

- محمد عبد الله علي سيف العبيدي. (1425هـ-2004). *دلالة السياق في القصص القرآنمي* . وزارة الثقافة والسياحة : صنعاء، اليمن .
- محمد علي التهانوي. (1996). *موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم*. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان، ناشرون.
- مناع القطان. (بلا تاريخ). *مباحث في علوم القرآن*. ط1، القاهرة، مصر: مكتبة وهبة.
- نوال الخلف. (2006-207). *الانسجام في القرآن الكريم: سورة النور أنموذجا* . جامعة الجزائر.
- هناء محمود إسماعيل. (2012). *النحو القرآني في ضوء لسانيات*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.